مناظرة الكسائي وسيبويه

مسألة العقرب والزنبور

« وليس يخلو امرؤ من حاسد أخم * لولا التنافس في الدنيا لما أضما
والفضل والعلم أشجى محنة علمت * وأبرح الناس شجواً عالم هضما »
«لزوم الفرطاجني»

كان من أثر المناظرة التي قامت بين الهمذاني والخوارزمي [1] أن الخوارزمي مات بعد قليل من الزمن ولم تحتمل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة. وكان من أثر المناظرة التي قامت بين الكسائي وسيبويه أن سيبويه مات كمداً وهو في ريعان شبابه وحين نشاطه — كما يقولون — ولم يحتمل شبابه تلك الهزيمة القاتلة. وليست الطرق التي لجأ اليها الكسائي لينتصر بها على منافسه سيبويه — أو على الاصح ليهدم بها شهرته — بأقل شناعة وقسوة من تلك الطرق التي سلكها الهمذاني للتغلب على الخوارزمي والانتصار عليه

ولقد قلنا في المناظرة السابقة إن الهمذاني قد أعدَّ عدته وهيأ لنفسه كل اسباب الانتصار والفوز على خصمه وزجَّ به في مجلس كله خصومة ولدد، ونقول في هذه المناظرة إن الكسائي لم يقصر في اعداد كل الوسائل لهدم سيبويه ولم يتعفف عن شيء في سبيل الانتصار عليه. [2] واذا كان الهمذاني قد لجأ الى تملق شهود المناظرة لينصروه على الخوارزمي واشترى ذممهم بهذه الحيلة فان الكسائي قد لجأ ايضاً الى نفوذه وجاهه وماله واتخذ من صداقته للبرامكة وكونه مؤدب اولاد امير المؤمنين وسيلة للتغلب على سيبويه

ولئن شكونا في المناظرة السابقة قلة المصادر التي نرجع اليها في تحقيقها ولم نجد غير رواية الهمذاني نفسه — وهي رواية خصم عن خصمه — فان ما نشكوه في هذه المناظرة هو تعدد المصادر وكثرتها وتباين رواياتها وأثر التعصب فيها وتعمد التشويه

على ان هذه الروايات — رغم اضطراب بعضها واختلافه في التفاصيل — متفقة في

---

(١) راجع مقتطف يوليو سنة ١٩٢٩ ص ٥٥ (٢) قالوا: « وقد ارشى الكسائي العرب — وكانوا جماعة من المسترزقة الذين كان يعولهم — على ترجيح جانبه »

الاساس والجوهر — فهي من اية ناحية رأيت وبأية رواية اخذت — تدل على ان سيبويه قد ظُلم وان الحق كان في جانبه ، فقد اجمع علماء النحو واللغة — في زمن سيبويه وبعد زمنه — على ان الصواب ما قال وأن الكسائي كان في الجانب الخاطىء . ولم يشذّ عن هذا الاجماع الا شيعة الكسائي والطامعون في ماله او جاهه والمحسوبون عليه وذوو الحاجات وطلاب المآرب الذاتية

وليست هذه المناظرة على الحقيقة — إن صح أن نسميها مناظرة — إلا فصلاً بين مذهبين وحرباً بين مدرستين ، مدرسة الكوفيين ومدرسة البصريين اساتيذهم ، ممثلتين في شخصي الكسائي زعيم علماء النحو في الكوفه وشيخ مدينة السلام ، وسيبويه زعيم علماء النحو في البصرة وتلميذ الخليل بن احمد سيد اهل الادب — كما كانوا يلقبونه — وقد لعبت الاهواء من سياسية وغيرها في تغليب رأي الكسائي على رأي سيبويه[1]

على ان فضل سيبويه ذائع — رغم انتصار الكسائي عليه — وكتابه الذي ألفه في النحو لم تبل جدته الى اليوم ولا يزال كتاب نحو وأدب معاً وأسلوبه في اعلى طبقات البلاغة ، وقد كان المبرد يقول لمن يريد ان يقرأ عليه كتاب سيبويه : «هل ركبت البحر ؟» تعظيماً لشأنه ، وكان الزجاج[2] يقول: «اذا تأملت الامثلة من كتاب سيبويه تبينت انه أعلم الناس باللغة»

وقال الجرمي[3] : « انا منذ ثلاثين سنة افتي الناس في الفقه من كتب سيبويه »[4]

وقال المازني: « من اراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو يعمد كتاب سيبويه فليتسع »

وقد كتب سيبويه هذا الكتاب الخالد في الوقت الذي كان فيه الكسائي منصرفاً الى المناصب والاتصال بالخليفة والدعاية لنفسه بأنه العالم الفذ الذي استفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب وأن هذا زيادة على ما حفظه، الى آخر هذه الدعاوى الفارغة التي لا يغضي بها المتصرفون الى العلم حقاً والتي هي اشبه بالاعلانات التجارية ، وهذا أسلوب فذ في الدعاية لجأ اليه الكسائي — في جملة ما لجأ — للوصول الى الشهرة

واذا رأينا علماء اللغة وأئمة النحو يحترمون سيبويه ويقرون مذهبه ، رأيناهم — على العكس من ذلك — ينفرون من مذهب الكسائي ويرون فيه افساداً للغة واضاعة للنحو

قال ابن درستويه : «كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً يقيس عليه حتى افسد بذلك النحو »

---

(١) كان العباسيون يقربون منهم الكوفيين لانهم نصروهم في دعوتهم وكان هذا الاعتبار اكبر الأثر في اتصالهم بالخلفاء (٢) ابو اسحق الزجاج (٣) ابو عمر الجرمي (٤) يريد بذلك انه تعلم منه النظر وطريقة البحث الدقيق

وقال الاصمعي : «اخذ الكسائي اللغة عن اعراب من الحطمة ينزلون بقطربل ، فلما ناظر سيبويه استشهد بلغتهم عليه » . وقال محمد اليزيدي :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الاول
فجاء اقوام يقيسونهُ على لغى اشياخ قطربل
فكلهم يمل في نقض ما به يصاب الحق لا يألى
إن الكسائي وأصحابه يرفون في النحو الى اسفل

وقال الزجاج : « أبى انصاف في الرجوع الى اعراب وفدوا لحاجتهم ، وسيبويه رجل غريب وأخصامه اهل البلد والدولة ، وانما الحكم العارف بالفصيح وغيره ، وقد لا يعرف الاعرابي إلا لغته الشاذة » الى آخر هذه الآراء

وقد اشار المعري الى تحامل الكسائي على سيبويه — في رسالة الغفران — وألمح الى بعض المناظرات التي قامت في ذلك العصر الحافل بالمناقشات والمناظرات بين علمائه، فقال في معرض الكلام على تنامي الحسائك والاحقاد في الجنة بين ألد الخصوم : —

« فصدر احمد بن يحيى [1] هنالك قد غسل من الحقد على محمد بن يزيد [2] فصارا يتصافيان ويتوافيان

« وأبو بشر عمرو بن عثمان « سيبويه » قد رحضت سويداء قلبه من الضغن على « علي ابن حمزة الكسائي » وأصحابه لما فعلوا به في مجلس البرامكة وأبو عبيدة صافي الطوية لبد الملك ابن قريب [3]، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»

كيف كانت المناظرة

لم يكد يرد سيبويه الى العراق حتى شعر الكسائي أن مكانتهُ اللغوية في خطر وأن منافساً جديداً يحاول ان يغتصب منهُ مقام الزعامة . قالوا : وشق امرهُ على الكسائي فأتى يحيى وجعفر بن برمك وقال : « أنا وليكما وصاحبكما ، وهذا الرجل انما قدم الى العراق ليذهب محلي » . قالا : « فاحتل لنفسك فإنا سنجمع بينكما »

وهكذا دبرت المؤامرة في بيت البرامكة لهدم سيبويه ، فلما حان الموعد حضر سيبويه وحده وجاء الكسائي ومعهُ الفراء والاحمر وغيرهما من اصحابه، فسألهُ الفراء عن مسألة فلم يكد يجيبهُ فيها حتى قال لهُ : « اخطأت » وسألهُ عن ثانية فاجابهُ فقال لهُ « اخطأت » ثم سألهُ عن ثالثة وقال لهُ — : « اخطأت »

فقال لهُ سيبويه — : « هذا سوء ادب منك »

(١) تعب (٢) المبرد (٣) الاصمعي

فقال الفراء لصاحبه —: « يظهر ان في هذا الرجل عجلة ، وحدة »

وسألهُ الاحمر عن عدة مسائل فكان يخطئهُ في كل جواب يقوله به . قالوا — : فلم ير سيبويه إلاّ ان يكفَّ عن مناقشته . وهنا يقول لهُ الكسائي — ولعلك تلمح في جملته معنى التحقير والاستصغار — « يا بصري كيف تقول :—

« كنت اظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي ، او فاذا هو إياها ؟ »

قال — : « أقول فإذا هو هي » . فأقبل عليهِ الجمع فقالوا اخطأت ولحنت

وفي هذا مثال من التهويش والتحامل على سيبويه

وهنا يقول يحيى بن خالد بن برمك : « هذا موضع مشكل فمن يحكم بينكم » . فقال الكسائي : « هؤلاء الاعراب على الباب »

فادخل ابو الجراح ومن وجد سعةً ممن كان يأخذ منهُ . فقال لهم الكسائي : كيف تقولون : « قد كنت احسب ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا الزنبور اياها بينها »

فقالت طائفة — : « فاذا الزنبور هي »

وقالت اخرى — : « فاذا الزنبور اياها بينها »

فقال الكسائي : — « هذا خلاف ما تقول يابصري »

وهنا يقبل يحيى رب الدار على سيبويه — وهو الغريب المستوحش — فيقول له ما يشعره بأن صاحب الدار من رأي الكسائي وشيعته : « قد تسمع أيها الرجل »

فلا يكاد يسمع سيبويه هذه الجملة حتى يستكين . ويسرع الكسائي الى يحيى فيقول له حتى يطمئن على أن المناظرة قد انتهت وأن الغلبة قد تمت له : « أصلح الله الوزير لقد وفد عليك من بلده مؤملاً فان رأيت ألا ترده خائباً ؟ » فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم

وكأنما الف الكسائي أن يصطنع الناس بالمال ليضمن لنفسه اقرارهم بزعامته العلمية التي يسعى الى الانفراد بها عند الخليفة ، ولعلهُ حسب أن هذه المنحة تنسي سيبويه تلك الصدمة العنيفة التي سببها له ، على ان الكسائي طالما اشترى بالمال ألسناً وذمماً

ألا ترى الى الاخفش يذهب الى الكسائي غاضباً — بعد ان أخبره سيبويه بما حدث له معهُ — فيسأل الكسائي وهو بين تلاميذه ويخطئهُ في كل جواب يقوله . فيهم تلاميذ الكسائي بضربه فينهم من ذلك — خوفاً من ذيوع أمره — ويقبل عليهِ يعانقهُ متحبباً اليهِ ويعهد اليهِ بتعليم اولاده ويرشوه بالمال فينسيه بذلك ثأر صديقه سيبويه

وقد كان من بين تلاميذ الكسائي من هو أعلم منهُ وأجدر بالزعامة كالفراء مثلاً ، وما كان مثل الفراء ليقبل أن يكون تلميذاً للكسائي لولا طمعهُ في جاهه ومالهِ وامله في أن

يتصل بالخليفة بفضل صحبته له ؛ وقد تم له ما أراد بعد ذلك

ورعا استشهد لنا أحد الادباء الناقدين بقول الفراء نفسه للتدليل على فضل الكسائي :—

قال لي رجل : « ما اختلافك الى الكسائي وأنت مثله في النحو ؟ » فأعجبني نفسي فأتيته مناظرة مناظرة الاكفاء ، فكأني كنت طارأ يغرف بمنقاره من البحر »

فان امثال هذه المدائح يجب ان تفهم على وجهها الصحيح ، فهي نوع من تملق ذوي النفوذ طمعاً في جاههم وتقرباً اليهم

الا ترى الى ابن الرومي نفسه — وهو الشاعر الفحل — يلجئه العوز والفاقة ونكد الدنيا الى امتداح بيت سخيف لابن المعتز ، حين سأله :— « لم لا تشبه مثل تشبيه ابن المعتز في قوله:

وبدا الهلال كزورق من فضة قد اثقلته حمولة من عنبر

تتظاهر لهم باكبار معنى هذا البيت الثافه واعجابه بما فيه من تشبيه متكلف وعجزه عن محاكاته تملقاً لقائله لرفعته وعلو منزلته. ولقد سئل الفراء نفسه عن الكسائي بعد موته فقال:

« مات الكسائي وهو لا يحسن حد نعم وبئس وأن المفتوحة[1] »

ولا نظنا متحاملين على الكسائي حين نثبت هنا ما يرويه بعض المؤرخين عنه من انه كان منهمكاً فاجراً . ونحن نروي ذلك بشيء من التحفظ فلا نصححه ولا نتفيه فلعله من دسائس البصريين، على اننا لا نستبعده ، فليس اتصاله بالخليفة وتعهده ابناءه بالتربية مما يعصمه عن اقتراف الدنايا والآثام ولو سرًّا

وقد تعلم الكسائي وهو كبير وانصرف سيبويه الى العلم منذ حداثة نشأته واعجب الخليل ابن احمد بذكائه وكان يرحب به[2] وقد شهد له اكبر علماء النحو بالتفوق والفضل ، ولقد استعان بكتابه خصومه أنفسهم فقرأ الكسائي على الاخفش كتاب سيبويه واعطاه سبعين ديناراً اجراً على ذلك ، وقد وجد بضة تحت وسادة الفراء التي كان يجلس عليها. كما قال النحاس

رأي النحاة في قضية المسألة

قالوا : « وأما سؤال الكسائي فجوابه ما قال سيبويه وهو « فاذا هو هي » هذا هو وجه الكلام مثل : « فاذا هي بيضاء » ، « فاذا هي حية » وأما « فاذا هو اياها » — ان ثبت — فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء ، ولا يبتدأ به ، كالجزم بلن والنصب بلم والجر بلعل ، وسيبويه واصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك وان تكلم به بعض العرب

(١) ومن العجيب أن المبرد يقول في الفراء نفسه بعد موته — : « مات الفراء ولم نفسه شيء من حتى » والكل الفرق بين العبارتين واضحاً (٢) كان الخليل يقول له : « اهلا بزائر لا يمل مجلسه » ولم يكن ليقوله يقوطا

وقد حدث لابي عثمان المازني ما حدث لسيبويه . قال : « دخلت بغداد فألقيت عليَّ مسائل فكنت اجيب فيها على مذهبي ويخطئونني على مذاهبهم. قالوا : «وهكذا اتفق لسيبويه»

وجماع القول أن سيبويه هزم رغم فضله وعلمه وكونه في جانب الحق ، ولم يكن له بد من السكوت والهزيمة في هذا المجلس الحاشد

ومثل لنفسك ايها القارىء مجلساً حافلاً باعيان الدولة وقادة الرأي فيها يجمع مثلاً على ان « لم » تنصب ولا تجزم وانت وحدك تقول « انها تجزم ولا تنصب وان العرب لا تعرف غير ذلك » وهم لا يسمعون لك قولاً . فأية حجة تستطيع ان تدلي بها في مثل هذا المجلس المتحامل الذي ينكر عليك ما لا سبيل الى انكاره ؟

كذلك كان موقف سيبويه ، يقرر قاعدة اجمع علماء النحو على صحتها وعلى ان خلافها شاذ لا يؤخذ به ، فلا يقبل منهُ قول

ولقد كان في لسان سيبويه حبسة — كما يقولون — ولكنها لم تكن السر في هزيمته[1] فهو لم يقصر في الكلام ، ولم يكن ذلك المجلس المتحامل عليه في حاجة الى خطيب لسن ، بل كان في حاجة الى آذان واعية وقلوب لم يفسدها الهوى والغرض

وهكذا تمت الهزيمة ، فذهب سيبويه الى فارس ، ولم تطل مدته بعد ذلك . قالوا : ولما اعتلَّ سيبويه وضع رأسهُ في حجر أخيه فبكى اخوهُ لما رآهُ ، لما به ، فتطرت من دمعه قطرة على وجهه ، فرفع سيبويه رأسهُ اليه فرآهُ يبكي فقال — :

« أخيَّ كنا ، فرق الدهر بيننا الى الامد الاقصى ، ومن يأمن الدهرا ؟

ولقد قضى سيبويه جل حياته في الدرس على خير اساتيذ عصره لاسيما الخليل ويونس ومات بعد أن ألَّف كتابهُ الخالد وان كان لم يدرِّسهُ . وختمت حياة هذا العالم الجليل دون أن يجني ثمر جهاده . رحمة الله عليه وعلى شيخيه الجليلين الخليل ويونس

« تولى سيبويه ، وجاش سيب من الايام فاختل الخليل[2]
ويونس أوحشت منهُ المغاني وغير مصابه النبأ الجليل
أتت علل النوى ، فما بكاهم من اللفظ الصحيح ولا النليل
ولو ان الكلام يحس شيئاً لكان لهُ وراءهم أليل »

القاهرة كامل كيلاني

---

(١) فقد ناظر سيبويه بعض العلماء ولم تمنعه حبسة لسانه عن الانتصار عليه قال عمرو بن مسوزق : رأيت سيبويه والاصمعي يتناظران ويقول يونس بن حبيب — « الحق مع سيبويه وقد غلب ذا — يعني الاصمعي — بلسانه » (٢) الشعر لابي العلاء